

مقالة

بمناسبة ذكرى استشهاد الشهيد الثالث القاضي نور الله التستري

القاضي التستري (الشهيد الثالث)؛ التضحية من أجل العقيدة

إعداد / صادق عبد الجبار

! الأبحاث و المقالات المنشورة لا تعبر عن رأي «الأفاق» بالضرورة ، بل تعبر عن رأي أصحابها



القذرة، فكتب إلى سلطان الهند يُعلمه أن علياً عليه السلام هو من رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أن الجُهاَل لا يفقهون ذلك، ولم يعرفوا حق أمير المؤمنين عليه السلام مع حسدهم لذلك السيد الجليل لما وصل إليه من مكان عال ومنزلة شامخة بين العلماء، فانصرف السلطان عن قتله بعد أن عرف حقيقة الحال وواقعه.

ولم يلبث أولئك النواصب أن استغلوا وفاة السلطان (أكبر شاه) واغتنموا مجيء ابنه (جهانكير شاه التيموري) خلفاً على البلاد، وكان ضعيف الرأي سريع التأثر شديد الغضب، فدرس أولئك الحساد والأوغاد رجلاً خسيئاً منهم إلى السيد الشهيد لمعرفة أخباره والتجسس عليه، كما هو فعل أسيادهم من قبل في التجسس على أعلام الشيعة لأجل القضاء عليهم، وتصفيتهم.

وقد تم لهم ما أرادوا، فلزم ذلك الرجل مجلس السيد القاضي نور الله بصفة طالب علم، إلى أن عرف من طول الملازمة والخدمة أن قاضي الهند وفقهها هو من أكبر دعاة الحق، مع تمكنه من الإطلاع على مؤلفات السيد لاسيما كتابه الخالد (إحقاق الحق) الذي لم يبق فيه حجة لناصر بني عبيد إلا وقد جعلها هشيماً تذروه الرياح.

لقد استكتب الرجل الشقي نسخة من (إحقاق الحق)، وأتى بها إلى السلطان في الوقت الذي أشعلت فيه حساد الشهيد نار غضب جهانكير شاه التيموري ملك البلاد، على السيد الجليل، فأمر (لعنه الله ومن آزره) بقتله بصورة بشعة، إذ جُرِدَت ثيابه عن جسده الشريف، ثم ضرب بالسياط الشائكة حتى تناثر لحم بدنه الشريف الطاهر، وذلك في سنة 1019هـ على أشهر الأقوال.

وهكذا قضى السيد التستري نحبه شهيداً وحيداً فريداً تحيط به زمر الأوغاد، ومحزقوا الكليم عن موضعه من كل مكان، ثم دفن جثمانه الطاهر في بلدة أكبر آباد بالهند، ومرقده الشريف معروف يزار للتبرك والتقرب إلى الله تعالى به.

آثاره العلمية

كان الشهيد القاضي نور الله التستري رحمه الله في عصره، ومتكلماً، وأديباً بارعاً، وبحراً في الفقه والأصول والحديث والعربية، أثنى عليه جميع من ترجم له غاية الثناء، حتى وصفوه بالشهيد الثالث. ولعل خير ما يدل على علمه وطول باعه في علوم الشريعة الغراء كثرة

وآثار خالدة، لاسيما آثار الشهيد صاحب الترجمة عليه السلام الذي شهدت له آثاره العلمية على تجرّبه في العلوم الشرعية بأسرها.

مسيرة طلب العلم

أخذ الشهيد التستري (طاب ثراه) العلم - في أوان شبابه - من علماء بلده تستر، وأولهم والده السيد شريف الدين، فقرأ عليه الكتب الأربعة والأصول والفقه والكلام، كما أخذ العلم عن كثيرين غير والده، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة مشهد المقدسة، وكانت تعج يومذاك بمشاهير العلماء.

وما إن وصل مشهد، وكان عمره في ذلك الوقت ثلاثاً وعشرين سنة، حتى حضر درس المولى عبد الواحد التستري الذي كان من مشاهير أهل الفضل في عصره، ثم أخذ عن غيره من فطاحل العلماء في هذه المدينة المقدسة، ثم انتقل بعد ذلك إلى بلاد الهند في سنة (993هـ)، ولما يبلغ الأربعين، بعد أن تأكد له أن هذه البلاد لا ترفع فيها راية لآل محمد عليه وآله، ولما وصل بلاد الهند، قرّبه سلطانها (أكبر شاه)، لعلمه الجَمِّ وأدبه وفضله وورعه؛ فذاعت شهرته في كل بلاد الهند، ورقى أمره وحسن حاله جاهاً ومالاً ومنالاً حتى نصبه (أكبر شاه) قاضياً ومفتياً في دولته.

الجهاد في الهند

لقد كان منصب القضاء والإفتاء لا يتسّمه في تلك البلاد إلا من فاق الناس بعلمه وفقهه، ولهذا فقد تعرّض السيد من جراء هذا المنصب إلى حسد الحاسدين، لاسيما من تلبّس منهم بلباس الفقهاء، ومن تقمّص قميص العلماء، لكن وعلى الرغم من كثرة حاسديه في تلك البلاد ومع شيوخه النصب والعداء لأهل البيت عليه السلام، كان السيد الشهيد مجاهراً بالدعوة إلى التشيع أمام من يطمئن إلى دينه وورعه، حتى قيل عنه: إنه أول من نشر مذهب الحق في بلاد الهند.

ولهذا فقد حيكّت الدسائس ضده عليه السلام قبل أن ينكشف تشيعه، ثم سعت زمرة من الأوغاد المتزيين برزي العلماء، إلى السلطان بإباحة دمه الشريف، خصوصاً بعد أن سمع بعضهم منه عبارة: (عليه الصلاة والسلام) قالها بحق أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام، بعد أن جرى ذكره العطر على لسانه، فاغتنمها حسادهم، وزعموا أنها مختصة بالنبي صلى الله عليه وآله، ورفعوا ذلك إلى السلطان، وقد علّم أحد كبار علماء الهند المنصفين بهذه الدسيسة والمحاولة

نعرف قيمة العلوم الدينية وثقافة أهل البيت عليه السلام، عندما نقرأ سيرة حياة من حملوا مشعل هذه العلوم وتفانوا وضحوها من أجل تحصيلها ثم الحفاظ عليها ونشرها للعالم، معتقدين بحق أنها النهج القويم للإنسان ليدير حياته بالشكل الصحيح ولا يقع بالأزمات والمشاكل كالتي نشهدها اليوم في بلادنا الإسلامية وفي العالم كله وعلى مختلف الأصعدة.

نعم، هنالك من سجن ومن شرد ومن قتل بطرق وحشية بشعة ومن غاب في مظالم السجون وقضى نحبه صابراً محتسباً، لكن لم يتراجع قيد أنملة عن طريق الحق أو يبيع علمه الذي اكتسبه من أهل البيت عليه السلام، للسلطان الجائر أو لترضية أهواء ومصالح معينة.

من هؤلاء: (الشهيد الثالث)، ذلك العالم الكبير والمضحّي، وقد اكتسب هذا اللقب من الأدبيات الشيعية، بعد (الشهيد الأول) صاحب كتاب (اللمعة الدمشقية)، وبعد (الشهيد الثاني) صاحب شرح الكتاب القيم الذي يُعد اليوم أحد مناهج الدراسة في حوزاتنا العلمية.

■ الشجرة الطيبة

هو السيد نور الله ضياء الدين القاضي، ابن السيد العلامة شريف الدين، ابن السيد ضياء الدين، يتصل نسبه الشريف بالسيد الجليل أبي الحسن علي المرعشي، المعروف في كتب الرجال والتراجم الشيعية والعامة، وهو من سلالة الدوحة الحسينية العلوية الطاهرة، إذ ينتهي نسبه إلى الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام. ولد السيد الشهيد عليه السلام من أبوين مرعشين عالمين، في بلدة (تستر) جنوب غرب إيران مما يعرف اليوم باسم محافظة خوزستان سنة (956هـ)، ولهذا يعرف بـ(التستري)، ويقال له: (الشوشتري) أيضاً لكون (تستر) مغرب (شوشتر).

أما لقب: (المرعشي)، فقد جاء نسبة إلى (مرعش) وهي بلدة تقع بين الشام وتركيا، وكان جدّه الأعلى، السيد الزاهد الفقيه المحدث أبو الحسن علي، قد سكن تلك البلدة فنسب إليها، وكذلك أولاده وأحفاده يُعرفون إلى اليوم بالسادة المرعشية.

والأسرة المرعشية من الأسر الحسينية العربية في الدين والتقوى والصلاح والعلم، خرّجت على امتداد قرون متعاقبة عدداً كبيراً من العلماء والمحدثين والفقهاء، ولهم في تراثنا الشيعي بصمات بارزة،

من الصفحة ٤

ذات صلة بالصفحة 4 العكس هو الذي

حدث، حيث لم تستطع هذه الحركة ان تحقق نجاحها الا في اوساط كربلاء، اما في النجف فلم تستطع الحركة الوصول اليها. ولعل عمق الشخصية العلمية للشيخ الانصاري وضخامة عطائه الفكري وقوة الدور التاريخي الذي كان يقوم به جعل من النجف الاشرف قلعة حصينة لا تخترقها الافكار الضالة، لان اي نشاط فكري منحرف ما كان ليوقف على قدميه امام الزخم الفكري الهائل الذي حققه شيخنا الانصاري عليه السلام في النجف التي ظلت الموقع المتقدم للفقه والاصول سائر المعارف والعلوم الإسلامية في مدرسة أهل البيت عليه السلام.

رابعاً: الاضطرابات السياسية

كانت الفترة التي عاصرها الشيخ الانصاري تتميز باضطراب سياسي عام، حيث كان الصراع على السلطة شديد بين المماليك الذين حكموا العراق، ثم نهاية حكم المماليك وعودة السلطة إلى السلطان العثماني. وقد رافقت ذلك أحداث سياسية قلقة وكوارث

فاستطاع ان يقوم بحركة اصلاح سياسي وبث وعي اسلامي واسع في العديد من البلدان الإسلامية. ولاشك انه استفاد كثيراً من السنوات التي قضاها في النجف الاشرف تلميذاً متميزاً من تلامذة الشيخ الانصاري الذي منحہ اجازة الاجتهاد وهو لم يبلغ العشرين من عمره ولا تزال شخصية السيد جمال الدين موضع خلاف شديد بين المؤرخين والباحثين في تاريخ الحركات الاصلاحية في العصر الحديث.

الا انهم يتفقون جميعاً بانه استطاع ان يشكل تياراً قوياً من الصحوه والاصلاح لا يزال موضع تقدير واهتمام الاجيال ولا تزال آثاره الاصلاحية وافكاره السياسية ممتدة لعقود من الزمن. ان دراسة فترة الشيخ الانصاري تبين بوضوح القيمة الكبيرة لهذه الشخصية التي ظهرت في أجواء مضطربة وقلقة فقدمت للفكر وللامة عطاءً دائماً يتسم بالثبات والاستقرار فرض نفسه على حركة الزمن المتسارعة المتجددة.

المصدر: منتدي منار للحوار

الافغاني (الاسد آبادي). فالميرزا محمد حسن الشيرازي كان موضع اهتمام خاص من قبل استاذہ الشيخ الانصاري وقد سار على نهج استاذہ في الزهد والورع والابتعاد عن الدنيا واستطاع من خلال سيرته الاخلاقية ومواقفه الاجتماعية والإنسانية ان يكسب ثقة الأمة بشكل لم يحدث له مثيل من قبل وقد مثلت فتواه الشهيرة بثورة التنباك احد النقاط المضيئة في التاريخ السياسي الشيعي المعاصر.

كما ان دور الشيخ الاخوند الخراساني يعتبر من الادوار المتميزة في الحياة الإسلامية والسياسية من خلال مواقفه في قضية المشروطة أوائل القرن العشرين الميلادي وتصديه لحركة الجهاد ضد احتلال الروس لايران عام 1911 ميلادية.

اما السيد جمال الدين الافغاني فقد كان نمطاً آخر من تلامذة الشيخ الانصاري اذ مارس نشاطاً اصلاحيا مختلف في نهجه عن الاسلوب الذي كان سائداً في الحوزات العلمية وطريقة العلماء المصلحين الذين عاصروه.

من مراحل الازدهار فيها والتي كان من اعلامها المجدد الميرزا محمد حسن الشيرازي والشيخ محمد كاظم الخراساني والشيخ حسين النائيني والسيد ابو القاسم الخوئي والسيد الشهيد محمد باقر الصدر. وهكذا كان الشيخ مرتضى الانصاري يمثل منطقة استيعاب الماضي العلمي للمدرسة الشيعية، ومنطلق الابداع للمستقبل العلمي المشرق لهذه المدرسة الإسلامية الاصيله.

ان الآثار التي تركها الشيخ الانصاري ظلت حية مع حركة الزمن فكتابه الكبريان (الرسائل والمكاسب) يمثلان محطة اساسية في المسار العلمي حيث لا يمكن للطالب في الدراسات الشرعية ان يتخطاها في حياته العلمية، فهما المعلمان البارزان في الحوزات العلمية الشيعية.

وكما عاش الشيخ الانصاري حياً من خلال تراثه العلمي فانه ظل حياً من خلال تلامذته الذين مارسوا أدواراً سياسية ذات أثر كبير في حياة الأمة الإسلامية كالميرزا محمد حسن الشيرازي والشيخ محمد كاظم الخراساني والسيد جمال الدين

المدرسة الجديدة في طريقها اليها.

■ قيمة الشيخ النصاري في حركة الزمن

الشيخ الانصاري احد القلائل الذين اكتشفهم المستقبل اكثر مما اكتشفهم حاضرهم. وليس معنى هذا انه لم يأخذ موقعه الحقيقي في زمانه بل انه كان العلم الابرز في الوسط الشيعي وكان مرجع الشيعة بعد وفاة استاذہ، فلم يقف إلى جانبه نظير، بحيث ان وفاته جعلت المرجعية تتوزع على عدة مراجع بعدما كانت متوحدة فيه.

والشيخ الانصاري رغم علو شأنه في زمانه الا انه اكتسب منزلة اكثر سموا بعد وفاته بفضل التراث الفقهي والاصولي الذي تركه للحوزات العلمية دافعاً ايها إلى مراحل متقدمة من التطور والتقدم العلمي، بحيث يمكن اعتباره القيمة الحية المتجددة مع الزمن.

ان الشيخ الاعظم قدم في حياته ما ارسى دعائم المدرسة الاصولية وساهم بشكل فاعل واساس في تطور مدرسة النجف العلمية. وهو بعد وفاته فتح باب مرحلة جديدة

مدمرة مثل المجاعة والطاعون وفقدان الأمن، وهي العوامل فتكت بالاجواء الثقافية وتجمد النشاط والابداع العلمي، ولا سيما إذا أضفنا لها ان سياسة الدولة العامة كانت تتميز بالطائفية، وكان الشيعة يتعرضون لمضايقة الحكام خصوصاً وان أزمة العلاقة بين إيران والدولة العثمانية كانت تتسم دائماً بالشدّة والتوتر. ان تلك الاوضاع القلقة كانت تقف في الجانب المعرقل لنمو الفكر والحركة العلمية، غير ان قدرة الشيخ الانصاري العلمية مكنّته من تحدي الظروف الاجتماعية والسياسية.

وان يؤسس مدرسته العلمية المعطاءة، فقدم نتاجاته الضخمة في الفقه والاصول في واحدة من الفترات المظلمة التي شهدتها التاريخ الاسلامي.وقد عبر عنه سيدنا الشهيد الصدر عليه السلام بأنه يقف على رأس جبل من اجيال النوابع في العصر الثالث من عصور تاريخ علم الاصول وهو عصر الكمال العلمي للمدرسة الجديدة وعصارها في مرحلته الدراسية وهي في أوج نموها ونشاطها وقدّر له ان يرتفع بالعلم إلى القمة التي كانت